خرج ابراهيم من المنزل فى الضحى ·· وأخذ يسير فى شوارع القاهرة كالضال ·· وهو شاعر باقصى درجات التعاسة ·· فقد ظل يبحث عن وظيفة منذ تخرج فى الجامعة وطال البحث والتنقل بين المكاتب والدواوين دون نتيجة ··

وكان فى جيبه ثلاثون قرشا ولم يكن يعرف بعدها كيف يواجه الحياة ·· فقد باع كل ما يمكن أن تأتيه بما يسد رمقه ·· حتى كتبه باعها ·· ولم يبق لديه شىء يباع وأصبح فى حالة قاتلة من اليأس والعذاب وسدت أمامه كل المنافذ وأظلمت الدنيا فى عينيه حتى فكر فى الانتحار كآخر وسيلة للخلاص مما هو فيه من بؤس ·

وكان ينقل الخطو متثاقلا وفى رأسه الخاطر الاسود الذى أخذ يلح عليه ، ولاحظ لأول مرة وهو يمشى فى شارع سليمان باشا تجمعات الجماهير فى أكثر من مكان ثم ضوضاء وصخب وأخذت الضوضاء ترتفع ويعلو ضجيجها حتى اشتم رائحة الثورة من الأنفاس المتحركة فى الطريق ·

كان هناك شىء لم يدركه يجرى فى قلب القاهرة شىء لم يكن فى حسبانه ولكن حدوثه كان مقدرا بعد العناوين المثيرة التى ظهرت فى صحف الصباح عن معركة الاسماعيلية بالامس بين جنود بلوكات النظام والانجليز ·

اشتم رائحة الثورة وهو يتحرك وحده فى الشوارع الضيقة ·· فلما أشرف على ميدان مصطفى كامل رأى أبواب المتاجر تتحطم ·· والناس تتدفق كالسيل فى موج يدفعه موج ··· فشعر بهزة وسار فى ركابها ··

وكانت الجموع تزداد فى كل لحظة هياجا وغضبا ·· وترتد عن الشارع ثم تعود اليه ·· وبدا له جليا انه لا يحركها ولا يصدها أحد ·· وانها تتحرك من تلقاء نفسها بفعل الغضب وحده · ·تتحرك وهى ترعد ·· ومن عيونها يطل الشرر ··

وكلما انتقل من شارع الى شارع كان يسمع خبرا مثيرا وجديدا عن معركة الامس ·· كان يسمع خبرا يلهب حماسة الجماهير ويزيد من غضبها ·

ولما وصل الى شارع « فؤاد » رأى لونا آخر من الغضب على وجوه الجموع

الخامسة ·· رأى غضبا أسود لم يره من قبل ·

رأى الاثاث يلقى من النوافذ والشرفات، والنيران تشتعل فى المتاجر والبيوت وسمع الصراخ يقرع اذن الجوزاء وبدأت أجراس عربات المطافىء تدوى فى الشوارع ·· جرس وراء جرس ·· والخراطيم تمتد على الارض ·· والسلالم الطويلة تصل الى السقوف ·

وأخذ الماء يتدفق فى الشارع ويغسل واجهات العمارات العالية وامتلأت الطرقات بالهباب وبعروق الخشب المتساقطة والنوافذ المحطمة وقطع الزجاج المهشم ·

وردته الجماهير الى مكان آخر من نفس الحى ·· وشاهد الجموع تجرى فجرى معها دون أن يدرى الغاية من العدو ·· ثم توقفت وأخذت تسير فى صفوف متراصة وخيل اليه أنها أصبحت تسد عين الشمس ·

***

ولمح خوذات رجال المطافىء النحاسية تلمع وضباب الدخان يملأ الجو وشعر بصدره يضيق من الدخان فانحرف الى شارع عبد الخالق ثروت وهناك شاهد نفرا من الناس يحاول أن يحطم باب أحد المتاجر ·· فوقف من بعيد يراقبها دون أن يشترك معها فى العمل ·

ولما تحطم الباب الحديدى ·· رآهم يتدفقون الى الداخل وراقب العمل بضراوة وشاقه منظرهم الوحشى ، فأسرع اليهم ودخل معهم المتجر ورآهم يلتقطون المجوهرات والساعات فى لمح البصر ويحشون بها جيوبهم ·

ودون أن يشعر أو يحس بما فعل امتدت يده سريعا ووضع « عقدا » من الجواهر الثمينة فى جيبه ·· وأحس بالعرق وهو يفعل هذا ولكنه لما خرج من المحل · عاد الى نفسه ومشى هادئا فى الطريق ثم الفى نفسه يسرع ويخرج من الشارع ·

***

وكان قد دخل فى قلب المعركة وشاقه العمل كله ، شاقه تدفق الجماهير فى الشوارع وحماستها وصياحها بل شاقه النهب نفسه ··

وكانت النيران تشتعل وأسقف البيوت تتداعى حواليه ···

وسمع عن قرب صوتا مضطربا كان صوت الرصاص المنطلق والصراخ يمزق السكون ··

وجاءت عدة طلقات فى تعاقب سريع·

وأدرك أن العمارة المجاورة تحترق·· ان حى البنوك يحترق فى الحال ·

وكان شعاع الشمس يتخلل الدخان الاسود ··

***

ودفعته الجموع الى عمارة عالية فى الشارع وصعد السلالم معهم بقوة الدفع·

ولم يكن وهو يصعد يعرف الغرض من صعودهم وفى الدور الثالث توقف على البسطة ··

وسأل شابا من الصاعدين ··

ـ الى أين نصعد ··؟

ـ فوق ·· انجليز فى الدور الخامس ··

ـ لا يوجد انجليز فى هذه العمارة·· قالها بسرعة دون أدنى تفكير ·

وكيف عرفت هذا ..؟

ـ أعرف عن يقين ·· لا يوجد انجليز هنا ···

ـ بل يوجد فى الدور الخامس ·· والناس كلها تقول ذلك ·· ومن أنت أتسكن هنا ؟

ـ أبدا ···

ـ وكيف تنفى وجودهم اذن ·· انك خائن ·· جاسوس ···

ـ جاسوس ·· جاسوس ···

وسمع الكلمة فارتعش قلبه ·· وأحاطت به الجماهير ·· وأحس بأنه يختنق ··

وأخذوا يضربونه ·· فافلت منهم وجرى على وجهه الى تحت ··

وفى الشارع كان يعدو كالمخبول ويسمع الكلمة تلاحقه ··

ـ جاسوس ·· جاسوس ··

فذعر وفر هاربا ··

***

ووجد نفسه بعد أن انخلع قلبه من الذعر والعدو·· يدخل أول بيت صادفه ويصعد السلالم سريعا ·· ووقف أمام شقة فى الدور الرابع ·· وضغط على الجرس بهلع ·· فقد كان الأقدام تلاحقه على السلم ·· وأطلت سيدة من وراء الباب ··· وقبل أن تفتح فمها كان قد دخل والدم يسيل من وجهه وأغلق الباب ووقف وراءه ·

فنظرت اليه السيدة فى استغراب ووجل ولكن حالة الذعر التى كان عليها وصياح الجماهير وراءه جعلها تدرك حاله ·

وسمع الاصوات على السلم تصيح :

ـ أين ذهب ··؟

ـ هرب ·· ودخل شقة فى هذا الدور ··

ـ فى هذه الشقة ··

وأخذوا يقرعون كل الابواب ·· ولما قرعوا باب الشقة التى دخل فيها أبيض وجه السيدة ولم تفتح وحبست أنفاسها وظلت فى مكانها جامدة ·· وسقط ابراهيم فى هذه اللحظة مغميا عليه من الخوف ·· لما تصور انهم شرعوا يحطمون الباب ··

وأخذت السيدة وخادمتها تحاولان اسعافه بكل الطرق ·· وشعرت بهم وهم يهبطون الدرجات ويرحلون ·

***

ولما أفاق ابراهيم وجد نفسه ممددا على كنبة ··والسيدة وخادمتها تسعفانه وتغسلان جراحه ·· فتذكر ما حدث ونظر الى السيدة فى ذلة كان يخشى أن تطرده بعد أن استرد وعيه ··

وسمعها تقول للخادمة ··

ـ اعملى قهوة يا سنية للافندى ·

ـ شكرا يا سيدتى لا داعى للتعب··

ـ القهوة تنفعك فى هذه الحالة ·· اسرعى يا سنية ··

وعادت سنية تحمل صينية القهوة·

وأخذ ابراهيم يترشف فنجانه فى تؤدة وهو يشكرها ·· ولاحظ أن ملابسها خفيفة رغم برد الشتاء ··

وكانت جميلة ريانة العود طويلة بيضاء البشرة ولا تزال رغم أنها تعدت الثلاثين سنة ·· شابة فى نضارتها والدم الجارى فى شرايينها ··· وخمن من السكون الذى طالعه من البيت انها تعيش مع خادمتها فقط ·

وسالته وهى تنظر الى عينيه ..

ـ ما الذى فعلته ..؟

ـ لا شىء اطلاقا ..

ـ ولماذا يطاردونك اذن .. ؟

ـ اتهمونى .. بانى جاسوس .. وضحكت ...

ـ جاسوس يمكن أن يكون هذا صحيحا ..

ـ صعدوا الىعمارة فى الشارع المجاور وهم علىحالهم من الغضب ورأيت السكان يطلقون من النوافذ فى رعب قاتل . فأشفقت عليهم من هذا الاعصار الذى يدمر كل شىء فى طريقه .. قلت لهم انه لايوجد انجليز فى العمارة فاتهمونى بالجاسوسية .. وكادوا أن يقتلونى ..

ـ الجماهير الثائرة لا عقل لها ..

ـ وهل شاهدت النيران ... القاهرة تحترق ..

ـ ومن الذى اضرم هذه النيران ..؟

ـ المخربون والفوضويون .. وهم كالجرذان فى هذه الساعة ..

ـ وغضب الجماهير يجعلهم يؤدون مهمتهم بنجاح ...

ـ أجل .. الغضب الاسود ..

***

وأخذت صاحبة البيت تتأمله فى سكون .. ولما بصر بالعذوبة فى عينيها والرقة فى حديثها أخذ يتأملها بدوره فبدا له جليا من لون عينيها وبشرتها ولهجتها انها مصرية وغالبا تعمل فى الليل وتستريح بالنهار وخمن انها راقصة فى ملهى أو غانية من بنات الهوى .. ولهذا اختارت السكن فى هذا الحى ..

أخذت تنظر اليه فىحنان وعلى ثغرها ابتسامة جميلة .

وذاب تحت سحر نظراتها .

وفكر فى هذه اللحظة فى العقد .. وكان قد نسيه فى غمرة الحوادث التى مرت به .. وتحسسه فى جيبه فألفاه فى مكانه .. وعجب أن أيدى الجماهير التى سحقته وضربته لم تمتد اليه .

وفكر فى أن يقدمه فى هذه الساعة الى هذه السيدة ..

ثم رأى أن يؤجل ذلك الى حين .. وعجب لنفسه وهو يرغب فى الموت فى كل لحظة لماذا فر منه عندما وجد الموت محققا .. وعندما وجد الجماهير تود أن تفتك به .. أخشى من التعذيب أم لان النفس عزيزة ولا تهون الا فى حالة التفسخ والجنون ؟ .

***

وأخذ يتأمل حاله وكان كلما هم بالانصراف أبقته السيدة بكلمات طيبة شجعته على البقاء ..

وكانت الساعة قد قربت من الثانية بعد الظهر .. وشعر بالخادمة وهى تمد سفرة الغداء .

ودعته الى الطعام فلم يرفض لانه كان يشعر بجوع شديد ..

وجلس يأكل بشهية.. وهى تلاحظه وتقدم له الطعام بحنان .

ولما فرغ قال لها :

ـ انها أشهى أكلة أكلها فى حياته..

فسرت احسان من هذا الاطراء الذى هز أعماق انوثتها ..

***

وكانت الخادمة سنية كما أمرتها سيدتها قد أغلقتجميع الابوابوالنوافذ

ولما كانت الشقة داخليـة ولا تطل على الشارع فقد بدت الردهة معتمة ..

وكلمـا هم بالخروج أبقتـه السيدة احسان وقالت له انها تخاف الآن ولم تشعر بمثل هذا الخوف فى حياتها .. بعد أن رأت النيران مشتعلة فى الحى.. والجماهير الغاضبة .. وترجوه أن يبقى معها هذه الليلة ما دام يعيش وحده فى القاهرة ولا أحد سينزعج بسبب غيابه عن البيت ...

ورأى من توسلاتهـا ونظرات عينيها أن يبقى ..

وجلس يتحدث مع احسان حتى دخل الليل واخبرته انها تشتغل راقصة فى ملهى بشارع عماد الدين وانها تعيش وحـدها مع الخـادمة .. وتذهـب الى المرقص فى السـاعة التـاسعة ليلا .. ولكنها هذه الليلة لن تذهب بالطبع .. وربما كان الملهى نفسه يحترق فى هذه الساعة فقد سمعت أن الحريق امتد الى بناية مجاورة له ..

ورآها جميلة وطيبة وعذبة الحديث وفيهـا رقة وصفاء فحزن لانها تحترف هذه المهنة وتعرض جسـمها عاريا كل ليلة للانظار المتوحشة ..

وسألها :

ـ هل تربحين كثيرا من هذه الحرفة؟

ـ أبدا .. واخترتها بعد عذاب .. وجوع ..

ونظرت الى السقف كأنها تحلم أو تسترجع شريط حياتها .

وقالت بصوت ناعم الجرس :

ـ كنت متزوجة من شـاب وسيم وغنى وكنت صغيرة .. وأطوع له من بنانه .. ولكنه خاننى أبشع خيانة..

ـ كيف ؟

ـ كنت مريضة بالتيفود .. وطريحة الفراش .. وذات ليلة وجدته يحتضن الخادمة ...

ـ وتركتيه بعدها .. ؟

ـ أجـل طلبت الطـلاق .. وكنت وحيدة وفقيرة وأريد أن اشتغل فى أى عمـل أعيش منـه .. حتى غسالة فى البيوت .. لأصون نفسى من الدنس .. وأظل عفيفة.. ولكن أى رجل لا يتقاضى ثمن خدماته للمرأة المسكينة ؟! ودفعت الثمن لأول رجـل شغلنى فى مصـنع للتريكو .. وبعـدها هانت على نفسى واحتـرفت الرقـص .. وأنا أعيش مستقلة ..

ـ ومسرورة بعملك .. وشـاعرة بالراحة ..؟

ـ لقد تبلد احساسى فى الواقع لم يعد له احساس الانثى وأنا أمثل فى كل ليـلة اتكلف الابتسام والضحك لأرضى الزبون ...

وأمنيتى أن أقـع عـلى من يخفق له قلبى .. ويسمعنى كلمة حلوة مجردة من كل غرض ..

ـ أو لم تسمعى هذه الكلمة بعد ؟ .

ـ أبدا .. ما سمعتها قط ..

ـ ان هذا محزن فى الواقع ..

ورفعت رأسها الى عينيه وسألته :

ـ لماذا يبدو وجهك شاحبا .. هـل لازلت خائفا .. ؟

ـ ذهب عنى الخوف .. ولـكن هذا من أثر الجوع ...

ـ وهل أنت فقير الى هـذا الحد .. ولماذا لا تعمل ؟

ـ فقير جدا .. ومنذ سنتين وأنا ابحث عن عمل .. دون نتيجة ..

ـ تعال .. عندى فى الملهى واشغلك ..

ـ فى أى وظيفة ..؟

ـ سأجعلك تراقب الزبائن فى الصالة ..!

ـ لست من ذوى العضلات الحديدية حتى أصلح لهذا ...

ـ أى عمل .. أى عمل تحبه ..

ـ يا ستى شكرا جزيلا ..

وحدقت فى وجهه طويلا .. وقالت:

ـ لا أدرى أين رأيتك من قبل ..؟

ـ وأنا كذلك اسائل نفسى نفس السؤال ...

ـ ولهذا لم يكن وجهك غريبا على وأنا أفتح لك الباب ..

ـ لقد نجيتنى من الموت.. ولا أدرى كيف أشكرك ..

وتحسس العقد فى جيبه .. ثم أخرجه وقدمه لها ..

وبرقت عيناها وحدقت فى عجب ..

ـ ما هذا ؟

ـ عقد وجدته ملقى فى الطريق .. سقط من الذين نهبوا المتاجر ..

ولم يشأ أن يقول لها انه سرقه .. وسألته :

ـ أنهبوا المتاجر .. ؟

ـ معظم الحوانيت فى هذه المنطقة .. نهبت وحرقت ..

ـ يا ليتنى كنت هناك كنت ملأت بيتى بكل مايعوزنى من تحف وجواهر. وضحكت ..

فقال :

ـ أنزل .. وأملأ لك جيوبى ...

ـ أتسرق ..؟

ـ لقد سرقت . .

ـ سرقت ..؟!

ـ نعم وهذا العقد سرقته .. لم أجده فى الشارع كما قلت لك من قبل .. واحمر وجهه ..

ولاحظ أن لون وجهها شحب ونظرت اليه باشفاق ..

ـ ولماذا فعلت هذا وانت شاب وأمامك الحياة الشريفة .. تشق طريقها بأظافرك ... ؟!

ـ لقد فعلت ما فعل الناس .. وجدتهم يسرقون ويغشون ويكذبون .. ففعلت مثلهم ...

ـ وهل الناس جميعا هكذا كما تصورت .. انت ناقم على المجتمع لانك عاطل .. ولماذا تبحث عن وظيفة فى الحكومة .. ابحث عن عمل آخر وهناك عمل لكل من يكافح ..

ـ ما الذى افعله وأنا فقير .. والاجانب يسيطرون على كل الاعمال الحرة ويمسكون الخيوط فى أيديهم .. ولا أحد يستطيع أن يتسلل من هذا الحصار ..

ـ هذا حق .. ولكن على المرء أن يسعى ..

ـ لقد سعيت كثيرا وتعبت ..

ـ داوم الطرق ...

ـ الآن وقد بعثت فى روحى الامل سأداوم ..

ـ ضع العقد فى جيبك . .

ـ كيف .. اننى اقدمه لك ..

ـ ضعه فى جيبك لا أحب أن تراه سنية ...

ـ ولماذا ترديته ..؟

ـ لتقدمه للبوليس.. قل انك وجدته ملقى فى الطريق ..

ـ سيقبضون على ·· هل أنا مجنون حتى أفعل هذا ·· سيقبضون على وأدخل السجن بسبب حماقتى ··

والآن أنت مستريح ··؟

ـ كل الراحة ··

ـ اذن خذه ···

ونهضت ووضعت العقد فى جيبه ·· كما كان ·· وأحس بجسمها وهى تفعل هذا يلامس جسمه ويضغط عليه ·· فأحس بلسع النار ·· وظهر الاضطراب على وجهه ··· ولكنه بعد قليل سيطر على عواطفه ··

***

وانسابت بخفة الى المطبخ وهى تقول :

ـ ساعد العشاء بنفسى ··

وجلسا يتعشيان فى غرفة الطعام وكان الليل قد قارب من منتصفه والنيران مشتعلة فى الشوارع المجاورة ·· والدخان يملأ جو السماء ·· وكانت الخادمة قد تكورت فى فراشها منذ ساعات ·· وبقيا ساهرين وحيدين وأحسا بالهدوء والألفة وكان قد عشقها من أول نظرة ·· وبادلته نفس الاحساس ولكن بتحفظ المرأة المجربة ·

وكان من عادتها أن تشرب قليلا من الكونياك مع العشاء ·· فجعلته يشرب معها ·· وشرب وأحس بالنشوة والشجاعة على محادثتها بكل ما يشعر به ·· أفضى لها بكل أحاسيس نفسه ·

ولما حان وقت النوم فرشت له فى غرفة الجلوس ··

وقالت له :

ـ تصبح على خير ··

واستدارت لتخرج من الغرفة فوجد نفسه تحت تأثير الخمر يطوقها بذراعيه ويطبع على خدها قبلة ···

فأفلتت منه سريعا ·· وقالت بصوت فيه رنة الغضب ··

ـ لماذا تفعل هذا ·· أتحسبنى رخيصة وسهلة المنال الى هذا الحد ··؟

ـ ما فكرت فى هذا ·· اننى ··

ـ هل ظننت وانت فى جيبك الثمن ·· انه من السهل أن تلقينى على الفراش ··

ـ يا سيدتى أعتذر ·· وساخرج الساعة ··

ـ تفضل ··

وأخذ يرتدى سترته وكان قد خلعها لينام ·

ومشى الى الباب وقبل أن يفتحه أشفقت عليه من الليل والظلام وما يحدث فى الخارج ·· وأمسكت بيده ·· وجذبته الى غرفتها ·· وأغلقت عليهما الباب ··

***

وفى الصباح استيقظ لما شعشع النور ·· وهو يحس بسعادة دافقة أحس بأنه قضى معها ليلة العمر ··

ولبس ملابسه سريعا ·· وكانت احسان لا تزال نائمة ·· وتعمد الا يحدث أقل حركة توقظها ··

وترك لها العقد بجوار الفراش على منضدة الزينة وتسلل بهدوء ·· وفتح الباب ·· وخرج الى الطريق ولم يكن يعرف أن التجول ممنوع فى هذه الساعة ·

***

وقبل أن يخرج من الشارع ·· حسبه جندى الحراسة ·· لصا من الذين تسللوا الى المتاجر التى تحطمت ·· أبوابها ·· فاطلق عليه النار ···

وسقط فى مكانه ···